متاحة رقمياً

مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Studies and Planning

الرغائبية في نظرية العلاقات الدولية
قراءة في النظرية السياسية الرابعة

هاشم عبد المطلب محسن

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط

مركز البيان للدراسات والتخطيط
Al-Bayan Center for Studies and Planning

الرغائبية في نظرية العلاقات الدولية: قراءة في النظرية السياسية الرابعة

سلسلة اصدارات مركز البيان للدراسات والتخطيط / قسم الابحاث / الدراسات السياسية

الاصدار / ورقة بحثية

الموضوع / شؤون إقليمية ودولية

هاشم عبد المطلب محسن / قسم الدراسات الدولية، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد

عن المركز

مركزُ البيان للدراسات والتخطيط مركز مستقلٌ، غيرُ ربحيٍّ، مقرُّه الرئيس في بغداد، مهمته الرئيسة -فضلاً عن قضايا أخرى- تقديم وجهة نظر ذات مصداقية حول قضايا السياسات العامة والخارجية التي تخصّ العراق بنحو خاصٍ، ومنطقة الشرق الأوسط بنحو عام. ويسعى المركز إلى إجراء تحليلٍ مستقلٍّ، وإيجاد حلول عملية جليّة لقضايا معقدة تهمُّ الحقليْنِ السياسي والأكاديمي.

ملحوظة:

لا تعبّر الآراء الواردة في المقال بالضرورة عن اتجاهات يتبناها المركز، وإنّما تعبّر عن رأي كتابِها.

حقوق النشر محفوظة © 2024

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org
Since 2014

الملخص/

لا يختلف أحد أن الخيال مطلوب في السياسة بهدف وضع الاستراتيجيات المختلفة وتعديلها متى ما تطلب ذلك، لكن ذلك لا يعني تشييد بناءات نظرية دون ملامسة الواقع كما يُظهره التفكير الرغائبي، بل كيف نستطيع توظيف ما هو موجود في الواقع لتشييد البناء النظري الذي يستثمر مقومات القوة والتأثير ويعزز الاستراتيجيات المُستخدمة ويحقق الأهداف والمصالح المنشودة. إن تفسير الظواهر وفهم الاحداث وصياغة الفرضيات وبناء النظريات سيقود حتماً الى التعددية التنظيرية، ويرجع ذلك في قسم منه الى الخلفيات المعرفية والقيمية التي تتحكم في تحيز الباحثين لنظرياتهم. تُعد النظرية السياسية الرابعة استمراراً للأفكار الأوراسية التي تكونت من مناهضة الليبرالية، ومعاداة الحداثة، والمركزية الغربية، والدعوة للتعددية القطبية. وقد احتوت نقداً للنظريات الثلاث السابقة لها، وهي الشيوعية، والليبرالية، والفاشية. وحدّد مُنظّرها (ألكسندر دوغين) هدف نظريته بالحاجة لإنشاء نظرية من شأنها أن تلعب دور القاسم المشترك للعالم المتعدد الأقطاب، وتقبُل الاختلافات الدينية والثقافية والتاريخية والحضارية للجميع، وأيضاً بالاستفادة من غنى الحضارات التي تزخر بالقيم التقليدية والروحية المتنوعة.

المقدمة

إن التنظير في حقل العلاقات الدولية يُنتج التحيز (Bias) بشكل آلي، وذلك من خلال اهتمام المنظر بتفسيرات مختلفة تجعله يُركز على مُعطيات معينة في الواقع مُستبعداً معطياتٍ أخرى معتمداً في ذلك على النموذج الإدراكي لديه والمتكون من (القيم والمعتقدات والتصورات والمعايير والمُسلمات وغيرها) التي يستقي منها خبراته والتي تساعده في الاجتهاد عند ترتيب وتنسيق تفضيلاته وخياراته التنظيرية. وتُعد النظرية السياسية الرابعة نموذجاً للتنظير غير الغربي في العلاقات الدولية، وتركز في الأساس على مبادئ الأوراسية الجديدة بأبعادها الجيوسياسية ودعوتها للتعددية في النظام الدولي، وأيضاً عبر الاهتمام بفرادة القيم المحافظة وعناصر الثقافة التقليدية كالدين، فضلاً عن التقاليد الروحية الأخرى والأعراف المتوارثة؛ التي تمتاز بها الحضارات الشرقية عموماً. وتسعى هذه الدراسة لكشف ملامح التفكير الرغائبي في هذه النظرية وتأثيرها على فرضياتها النظرية وصولاً لانعكاسات ذلك على واقع الصراع الحالي في البيئة الدولية.

تظهر القيمة العملية لنظريات العلاقات الدولية كمجال معرفي أكثر عند إثبات قدرتها التفسيرية للواقع الدولي بصرف النظر عن تعدد تلك التفسيرات وتباينها. وعلى الرغم من استحالة تطابق النظرية مع الواقع تطابقاً مطلقاً أي قدرتها على أن تكون تمثيلاً شاملاً تاماً لحقيقة الواقع، إلا إن النظرية تبقى عنصراً لا غنى عنه. فهي تُعد أحد العناصر الأساسية في توجيه وتحديد وصياغة المعرفة العلمية، وتحقيق التراكم المعرفي عبر شرح قوانين السلوك السياسي للدول ولمعرفة لماذا؟ وكيف؟ تتصل وتؤثر الاحداث مع بعضها، مما يجعلنا قادرين في نهاية المطاف على التدخل وربما تغيير الواقع كي يناسب أهدافنا وتطلعاتنا في عالم يتميز بالفوضى وعدم اليقين وهو ما نحاول بحثه في هذه الدراسة فيما يخص الرغائبية في النظرية السياسية الرابعة.

ومن هنا يبرز السؤال الرئيس وهو: ما هو تأثير الرغائبية الظاهرة في النظرية السياسية الرابعة ومقدار ملامستها للواقع الدولي الحالي في تحقيق قدرتها التفسيرية لذلك الواقع، وما يترتب عليها من إقناع الآخرين بأهدافها المُعلنة في مواجهة نظريات العلاقات الدولية (الغربية) السائدة؟

إن التفكير الرغائبي يُعد عائقاً معرفياً أمام التنظير في العلاقات الدولية كما في غيرها من حقول المعرفة. لأنه في الواقع انحياز مُسبق للنتائج التي تتمخض عنها عملية التنظير وهذا لا يعني بالضرورة نفي وجود مساحة معقولة ومقبولة من «الموضوعية» في عملية التنظير عموماً، كما أن الأفكار قد تُصبح مؤثرة ليس لأنها صحيحة، بل لأنها نافعة كونها تخدم مصالح معينة وبذلك تكتسب طابعاً استراتيجياً في الصراع.

المطلب الأول/ التفكير الرغائبي

يعمل التفكير الرغائبي (Wishful Thinking) على تكوين معتقدات وقناعات بناء على ما نتمنّاه، وليس استناداً إلى الواقع أو الحقيقة أو الأدلة أو حسابات العقل، وهو لا يمثل مغالطةً منطقيةً فحسب، بل يمثل تحيزاً معرفياً، يجعل المُصاب به، أو من يتحرّك بوحي منه يقارب الواقع على غير ما هو عليه، على أمل حسم المستقبل كما يرجوه ويتخيّله (أبو أرشيد، أسامة،2022). إن الرغائبية تجعل صاحبها لا ينظر للواقع بالصورة التي تجعله من خلال الواقع يحدد أهدافه، بل تجعل لديه فكرة واحدة لا يستطيع التفكير بغيرها، وهي التي تشكل عنده هذه الرغائبية وهي في النهاية تتمحور حول المصلحة الضيقة.

والأحداث مهما صغرت لابد أنها تؤثر في الأجندة المطروحة وتُحدث تغييراً في تسلسلها، لكنها لا تؤثر عند الرغائبي لأنه لم يتعود أن يُحدث تغييراً في سلم أولوياته يتماشى مع المتغيرات ليس عند العامة فحسب بل حتى عند النخب السياسية فضلاً عن المثقفين (عبد الرحمن، زين العابدين صالح، 2024). وهناك صورة فرعية للتفكير الرغائبي تسمى «التحليل الرغائبي» تظهر عندما يقدم بعض الكتاب والمفكرين المعروفين «تحليلات سياسية» لا يمكن وصفها إلا بـ الرغائبية، إذ إنها لا تستند إلى حقائق فضلاً عن مخالفتها للواقع، أو أنها قد تكون مبنيةً على معطياتٍ منتقاة، أو حتى مُبالغ فيها ومُنفصلة عن سياقاتها. وفي أحيانٍ كثيرة، تكون هذه «التحليلات» منطلقةً من تحيز إيديولوجي، فتكون انعكاساً لما يرغب أصحابها أن يكون عليه المستقبل، ومن ثم يقيمون حالة من الوهم، يتبعها لاحقاً إحباطٌ عند الناس الذين يؤمنون بهم ويتبنون مقولاتهم، عندما يصحون على مستقبل أشد مرارة من الواقع الذي يتمنون زواله (أبو أرشيد، أسامة، 2022). وعليه يحوي التفكير الرغائبي تأويلات تتماهى مع الرؤى النمطية المُسبقة بكل ما تشتمل عليه هذه الرؤى من تأويلات تلفيقية وآراء سطحية وأفكار دعائية أقرب ما تكون إلى «البروباغاندا» السياسية، كما يُمثل التفكير الرغائبي في الوقت ذاته تحييزاً قيمياً لما يراه المُنّظر صحيحاً وجديراً بالإتباع.

المطلب الثاني/ النظرية السياسية الرابعة، الهدف والمهمة

يحاول ألكسندر دوغين (Alexander Dugin)، عن طريق النظرية السياسية الرابعة تقديم أنموذج جديد خارج إطار النظريات الثلاث، التي تمحورت حولها السياسة العالمية وهي (الليبرالية، الشيوعية، الفاشية)، فكان قوام هذه النظرية هو عدم التركيز على الفرد أو العرق أو القومية كما فعلت النظريات الأخرى، وإنما التركيز على الوعي الذاتي الإنساني الذي همشته التكنولوجيا، ومن ثم فهي فكرة غير مادية تعارض المادية، كما وإن نظريته تذهب الى إمكانية الدخول في صراع مع الواقع الدولي الحالي؛ لأن هذه النظرية لم تكن معارضةً للنظريات السياسية المذكورة بشكل عرضي، بل كانت كما يرى (دوغين) تعبيراً عن منطق تاريخي واضح إلى حد ما.. تحاول هذه النظرية وبعد هزيمة الشيوعية والفاشية؛ أن تطرح نفسها في قبالة النظرية الليبرالية وتوجهات الغرب الأطلسي، ويمكن أن تتجسد عن طريق الاتحاد ضد الليبرالية الديمقراطية التي يتبناها الغرب، وأيضاً عن طريق تعزيز القيم والثقافة الروحية والتقاليد الوطنية، كما تهدف إلى حماية الوجود وبناء برنامج سياسي متكامل بواسطة الاتحاد ما بين مجموعة دول تنتمي إلى ثقافات متقاربة، وتشترك بالعديد من الأواصر السياسية والاجتماعية والثقافية، كما إنها تلتقي في الوقت عينه في معاداة الليبرالية، وفوضى الحداثة الغربية كما يقول (دوغين).

أولاً / النظرية السياسية الرابعة، مقاربة معرفية

تعود الجذور الفلسفية للنظرية السياسية الرابعة إلى الفلسفة الأوراسية التي تؤكد على فرادة وخصوصية المجال الجيوسياسي الروسي، الذي يُمثل الأساس لإعادة بناء الإمبراطورية الروسية التي لا تنتمي إلى الشرق ولا إلى الغرب، فالنظرية تمثل رؤية للعالم تنطلق من انقسام عميق وشمولي بين عالمين وثقافتين هما (الأطلسية) و (الأوراسية)، وعليه فالأوراسية كما يعتقد ألكسندر دوغين (Alexander Dugin)، هي «حقيقة جيوسياسية وعقيدية وحضارية» متكاملة عادت للظهور، كما يرى كثيرون كرد فعل على سقوط الاتحاد السوفيتي، والتفكير في بناء كيان إمبراطوري جديد ذا طبيعة جيوسياسية أوراسية (العايدي، أحمد محمد،2013).

ينطلق (دوغين) في وضعه النظرية السياسية الرابعة من افتراض جوهري هو فشل المشروع الحداثي الغربي، وما أنتجته إيديولوجياته الرئيسة (الليبرالية والشيوعية والفاشية) من مصير مأساوي للإنسانية؛ لأنها لم تحقق السلام والرفاه للإنسانية، فالليبرالية كما يقول دفعت الإنسان للإغتراب والوهم، فيما فشلت الشيوعية في مشروعها لحدوث انقسامات دوغمائية (الدوغمائية هي حالة من الجمود الفكري، حيث يتعصب فيها الشخص لأفكارهِ الخاصة لدرجة رفضهِ الاطلاع على الأفكار المخالفة، وإن ظهرت لهُ الدلائل التي تثبت لهُ أن أفكارهُ خاطئة، سيحاربها بكل ما أوتي من قوة، ويصارع من أجل إثبات صحة أفكارهِ وآرائهِ) فيها، ومن جهتها فإن الفاشية لم تكن سوى نزعة قائمة على القسر والاستعلاء العرقي. لقد قدم (دوغين) نظريته التي تؤمن بعالم تعددي وأخلاقي، عالم يعترف بالشعوب والثقافات الأخرى وبحريتها بعيداً عن قيم الغرب وإملاءاته الأيديولوجية، فوضع أسُس النظرية بهدف تحقيق الوصول إلى السيادة الجيوسياسية لقوى العالم الأوراسي، ووفق ثنائية (البر والبحر) مُنطلقاً من تعزيز ماضي الشعوب وقيمها التقليدية لكبح مشروع الحداثة الغربي وإعادة الإنسان المُستلب إلى «الروح، والى الجماعة، وإلى الله» (خشيب، جلال، 2018).

إن فكرة المواجهة المتكررة بين البر والبحر التي نظر لها كارل شميت (Carl Schmitt)، تعود في أصولها إلى تاريخ الشرق القديم غير أنه قد ركّز على ما يُنتجه هذا الصراع من نُظم قانونية وقضائية وحقوقية يختص بها كل طرف من دون الآخر، ويستعمل (شميت) رمزين من سفر أيوب التوراتي هما (البهموت) وحش اليابسة، و(اللوياثان) وحش البحر، وذلك للتعبير عن الصراع البشري ودعم نظريته ذات الأبعاد الجغرافية ، فيذهب الى أن البحار أو المياه تمثل الفوضى والحراك بينما تمثل اليابسة الثبات والجمود،

وعليه تكون الشعوب البحرية أكثر تحرراً وديناميةً من شعوب اليابسة؛ التي تميل الى النظام والمحافظة، وبتطبيق تلك المبادئ على الصراع بين الولايات المتحدة الامريكية (ممثلة البحر) والاتحاد السوفيتي (ممثل البر) في وقته، استشرف (شميت) انتصار الولايات المتحدة الامريكية خصوصاً بعد دخول القوة الجوية والفضائية معادلة الصراع بينهما، والتي كانت امتداداً للقوة البحرية، ما أفرز نتائج اجتماعية وسياسية وأخلاقية على صعيد قيم الحرية والحركة والمسارات الجيوسياسية التي ميّزت الحضارة البحرية كما يقول (حداد، معين،2015).

يبني (دوغين) منظومة أفكاره الجيوسياسية على الثنائية الجغرافية التي جاء بها (شميت) وعلى فكرة العداء التاريخي بين التيلوروكراتيا (Tellurocratia) وهي (القوة البرية)، والتالاسوكراتيا (Thalassocratia) وهي (القوة البحرية)، فيذهب الى أن رسوخ اليابسة يؤدي على المستوى الثقافي إلى رسوخ الأخلاق وثبات التقاليد الاجتماعية وإستطالة توارثها، ومن ثم يتعاظم دور التراث والمحافظة في حاضر الشعوب وتتراجع أهمية المبادرة الفردية في التجدد وتنتعش روح الجماعة لمصلحة استقرار النظام؛ الذي يحفظ تراتبية المقامات والطبقات الاجتماعية فيه، فيما تتميز الحضارة البحرية بالديناميكية والميل الى تسريع التطور التقني وإعلاء شأن النقل والمبادلات والتجارة وتتعزز فيها روح المبادرة الفردية والمغامرة ويتسع هامش الحريات ما يُفضي الى تبدلات اجتماعية وثقافية وقيمية سريعة، ويتصاحب ذلك بتضارب المصالح وسيولة الأفكار وتحولاتها وهو ما يقود إلى التباين ويُعرض المجتمع للصراعات والأخطار، كل هذا يُعزز فكرة دوغين القائلة بأن الحضارة البرية هي الأكثر أهلية لضبط الأمور وحفظ النوع الإنساني (حداد، معين،2015).

لقد تصور (شميت) عالماً يتكون من إمبراطوريات وفضاءات كبيرة ويمكن عن طريق تطبيق نظريته على الواقع، التمييز تماماً في المستقبل بين إمبراطورية أطلسية (بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية) وإمبراطورية آسيوية (بقيادة الصين واليابان) وإمبراطورية أوربية (بقيادة ألمانيا وفرنسا) وأخيراً إمبراطورية أوراسية (بقيادة روسيا)، وهذه النظرة كما يقول (دوغين) هي « تعبير مرئي عن البنية الكاملة للنظرية السياسية الرابعة» (دوغين، ألكسندر،2021).

في تحليله للصراع مع الليبرالية المعاصرة وغياب السياسة فيها، يقول (دوغين) « أخذت الليبرالية التي كانت تصر دائماً على التأكيد على السياسة، قراراً بإلغاء السياسة تماماً بعد انتصارها، ربما لمنع ظهور البدائل السياسية ولضمان حكمها الأبدي (نهاية التاريخ والإنسان الأخير).

لكن أولئك الذين لا يتفقون مع الليبرالية يجدون أنفسهم في وضع صعب؛ لأن العدو المُنتصر قد تفكك واختفى... كيف يمكن للمرء أن ينخرط في السياسة إذا لم تكن هناك سياسة؟ «ويُعلق» لا يوجد سوى مخرج واحد، رفض النظريات الكلاسيكية الرابحة والخاسرة على حد سواء. وفك رموز تحديات ما بعد الحداثة بشكل صحيح. والدعوة لتطوير النظرية السياسية الرابعة» (دوغين، ألكسندر،2021).

ثانياً / النظرية السياسية الرابعة، البُعد النظري

تقدم النظرية السياسية الرابعة العديد من الإضاءات في محاولة لتفسير ما يحصل من متغيرات عالمية فيوضح (دوغين) الغرض من النظرية بأنه (الحاجة) إلى نظرية تلعب دور القاسم المشترك للعالم متعدد الأقطاب، وتتقبل الاختلافات التاريخية والثقافية والدينية والحضارية للجميع، ولا يمكن أن تكون هذه النظرية حديثة أو غربية خالصة، ولهذا فهي تركز على الأنموذج غير الغربي أو ما بعد الحداثي بحثاً عن الإلهام (عبد الحسين، ياسر،2023).

ينتقد بعض الباحثين النظرية السياسية الرابعة لمحاولتها جعل منطقة معينة (أوراسيا) متميزة فكرياً وثقافياً كسبب لتشكيل كيان إمبراطوري؛ لأنها كما يرون دعوة للمواجهة الشاملة مع الغرب تتمحور حول نزعة سياسية متعصبة تتفق مع الفاشية من حيث التكوين، وتمثل خطراً على الأمن والسلم الدوليين وتؤسس لصراع يُمهد لحرب بين قوى نووية كبرى، ويُضيفون أن النظرية السياسية الرابعة هي فكرة مثالية مستحيلة التطبيق فعلياً، وكما فشلت الأيديولوجيات السابقة كالشيوعية والفاشية فإن مصيرها الفشل أيضاً، وذلك لأن العلاقات بين الدول لا تقوم على الأيديولوجيات المشتركة بل على المصالح المشتركة (العايدي، أحمد محمد،2013).

وهناك آراء مُكملة لباحثين آخرين يذهبون إلى وجود العديد من الإيجابيات في النظرية السياسية الرابعة؛ منها (عبد الحسين، ياسر، 2023):

1/ عجز النظريات الحالية وخصوصاً الليبرالية عن تقديم تفسيرات مقنعة للعديد من الأحداث في الواقع الدولي في مقابل التفسيرات الجيوسياسية التي تقدمها النظرية السياسية الرابعة.

2/ تقدم النظرية إدانة لأنواع التمييز جميعها القائمة على أساس عرقي أو ديني أو اجتماعي أو اقتصادي أو تكنولوجي أو ثقافي، وهي خطوة مهمة لمعالجة مشكلات الهوية والانتماء في العالم المعاصر.

3/ الروح النقدية التي تزخر بها النظرية اتجاه النظريات الثلاث السابقة؛ وذلك لفشلها في معالجة المعضلات الدولية السابقة والراهنة.

4/ يقرأ (دوغين) الحدود الحضارية في نظرية (صدام الحضارات) على أنها إيديولوجية جديدة للتعدية القطبية التي تستهدفها النظرية السياسية الرابعة.

5/ لا تهاجم النظرية الغرب بشكل تاريخي كامل بل تنتقد النسخة الأوربية الأطلسية المادية منه، وتعدها المسؤولة عن انحطاط الحضارة الغربية.

في الوقت نفسه يعترف (دوغين) بأن إطروحته حول التكامل الحضاري القائمة على التعددية القطبية ما زالت فلسفة (طوباوية) (الطوباوية هي تقليد فكري في العلاقات الدولية يجادل بأن السلام الدائم والمساواة والتلبية التامة للحاجات جميعها شيء مطلوب وممكن على حد سواء في السياسة العالمية. وقد نشر أدوارد كار هذا المصطلح في كتابه الشهير (محنة العشرين عاماً) عام 1939 والذي كان نقداً لهذا النمط من التفكير)، تحتاج الى جهود جبارة وتظافر كبير لأعمال وتحركات منتظمة وتفهم عميق من النخب السياسية العالمية لتنتقل من مستوى التصورات الذهنية (المثالية، المجردة) إلى عالم الواقع الجيوسياسي والثقافي والعلاقات الدولية اليومية الملموسة والممارسات العملية، التي تشرح نفسها بنفسها، ويتوقع أن تكون النظرية السياسية الرابعة هي القاطرة الجيوسياسية للعالم في القرن الواحد والعشرين، وذلك على الرغم من عدم موت الليبرالية كونها ما تزال تتغلب على المشكلات الكبرى (الجراد، خلف،2017).

ومن بين الجوانب السلبية الأخرى للنظرية أمكن للباحثين تشخيص بعضها وهي (عبد الحسين، ياسر، 2023):

1/ تفتقر النظرية إلى الخطة العملية لتحويل معطياتها إلى واقع ملموس، ولعل عدم الوضوح العملي مقصود من قبل المُنظر كما يدعي البعض.

2/ مع سعي النظرية لنفي النظريات الثلاث السابقة لها؛ لكنها استمرت في ملاحقة مسرى الأفكار في قيم تلك النظريات، ويبدو أنه من الصعب تجاوز النماذج الأيديولوجية والسياسية السابقة بشكل تام.

3/ لا تُظهر النظرية بوضوح أنها إيديولوجيا جديدة أخرى، ولا تمثل توليفة إيديولوجية للحداثة، بقدر ما تمثل إطروحة تنتمي للفلسفة السياسية لا غير.

4/ تهدف النظرية للدفاع عن الهوية والقيم الروسية، وبالمقابل يدعو مُنّظرها لتطبيق نظريته في الكثير من بلدان العالم الأوراسي، فماذا عن هويات شعوب تلك الدول مثل الصين والهند والعالم الإسلامي؟، والتي قد لا ترغب في الذوبان في الأوراسية.

المطلب الثالث/ النظرية السياسية الرابعة، مقاومة الوضع الدولي الراهن

مع تفكك الاتحاد السوفيتي والتفرد الأمريكي بالهيمنة على النظام الدولي، ساء حال التصور الجيوسياسي القديم للعالم، وجرت محاولات لاستبداله بتصور جديد يتركز على أمريكا الشمالية وأوروبا خصوصاً مع تناقص الأهمية المحلية للاستراتيجية بسبب التقدم التكنولوجي، ووعي الغربيين بتفوقهم العسكري والاقتصادي والتكنلوجي؛ ولكن كل ذلك لم يمنع الخبراء الغربيين من التخوف من فرضية قيام تحالف أوراسي يتمتع بطيف واسع من الإمكانات الجيوسياسية بحيث يجعل من دوام بقاء الولايات المتحدة الأمريكية في المقدمة أمراً مشكوكاً فيه، وتأتي النظرية السياسية الرابعة كمحاولة لبناء جبهة عريضة من الدول لمواجهة الغرب الأمريكي خصوصاً عن طريق الدعوة الصريحة الى التعددية القطبية، التي تمنح الآخرين فرصة عادلة للمشاركة في الشؤون الدولية ومن خلال صياغة سياسات نوعية لموازنة الآثار السيئة للتفرد والهيمنة الامريكية.

أولا / النقطة الفاصلة في تطور العلاقة بين روسيا والغرب

بدت العلاقة بين الغرب وروسيا أكثر إنفتاحاً بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، وكانت ذات طابع تعاوني واستمرت العلاقات تتطور طيلة مدة حكم الرئيس الروسي الأسبق بوريس يلتسين (Boris Yeltsin)، ومن جهتها، كانت روسيا تأمل بإخلاص دمجها في الفضاء الأوروبي خصوصاً بعد انتهاجها الليبرالية السياسية (سليم، حسن فاضل،2018).

بعد سنوات قليلة من وصول الرئيس الروسي فلاديمير بوتين (Vladimir Putin)، للسلطة اقترب من صياغة رؤيته الجيوسياسية الرسمية، والتي ظهرت مُمثلة في خطابه الشهير في مؤتمر ميونيخ للسياسات الأمنية (Munich Security Conference)، في 10 شباط 2007، وفيه انتقد الأحادية القطبية بوضوح وشرح رؤيته لدور روسيا في العالم المعاصر في ضوء معطيات الحقائق والتهديدات التي تتعرض لها، وتميز خطابه بالاتساق والوضوح مُزيحاً الستار عن ديماغوجية ما بعد الحداثة الغربية الغامضة والمراوغة؛ مُحدداً رؤية روسيا بالنقاط الآتية (دوغين، ألكسندر،2021):

1/ لا يمكن قبول الأنموذج الأحادي القطبية وان استمراره مستحيل تماماً.

2/ إن النظام القانوني الأمريكي الذي وضعته الولايات المتحدة الأمريكية لنفسها قد تجاوز حدودها الوطنية في كل المجالات، وبات يُفرض على الآخرين من دون وجه حق.

3/ ينبغي الرجوع الى ميثاق الأمم المتحدة بشأن استعمال القوة العسكرية كملاذ أخير يمكن اللجوء إليه في العلاقات الدولية.

4/ الشكوى من تحركات قوات حلف الأطلسي قرب الحدود الروسية، وتهديدها المجال الحيوي لروسيا، والتي لم تزّد لحد الآن (المقصود إلى عام 2007)؛ لأنها ملتزمة بالإتفاق بين الطرفين (وهو ما تم خرقه من لدن الغرب بالتحالف مع أوكرانيا وهو ما أوصل روسيا لتبني النظرية السياسية الرابعة كنهج سياسي لها في التعامل مع الغرب).

5/ التساؤل عن مصير الضمانات التي قدمها الغرب لروسيا بعد حل حلف واسو.

6/ نقد السياسة الغربية التي تجعل روسيا رهينة للمساعدات الغربية، وحرص الغربيين على إبقائها متخلفة اقتصادياً، ومن ثم رهينة لتلك المساعدات.

7/ تنبيه الجميع أن روسيا بلد ذو حضارة عريقة يتجاوز تاريخها ألف عام، وقد خاضت العديد من الحروب والصراعات، وكانت على الدوام تتمتع بميزة انتهاج سياسة خارجية مستقلة غير مرهونة لأحد وستبقى كذلك.

من وجهة النظر الروسية، تكشفت أحداث جورجيا (تسخيفال) عام 2008 ، المفارقات المتعلقة بالقيم والمصالح الغربية؛ عندما تم فتح النار على قوات حفظ السلام الروسية وتم اخضاع الأقلية الروسية في جورجيا للإبادة الجماعية المُخططة في أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا، بينما تظاهر الغرب والولايات المتحدة الامريكية خصوصاً، بأنه لم يحدث شيء واستمروا بالوقوف مع الحكومة الجورجية التي كانت مفيدة للأمريكيين لجهة وضع قواعد عسكرية أمريكية على أراضيها، ويقول (دوغين) مُعلقاً « لقد استفاقت روسيا أخيراً من التنويم المغناطيسي لنظام القيم العالمي»، وكانت هذه اللحظة جوهرية، خصوصاً وإن الغرب هو الذي قوّض بناء تلك القيم العالمية التي أستمر يدعو لها، ويستمر (دوغين) قائلاً «من الآن فصاعداً، لا يوجد نظام قيم عالمي واحد لروسيا، وفي إدراكنا وفهمنا لما يُعد قيمة وما غير ذلك، ماهي القيمة وما هو ثانوي، سنعتمد الآن على أنفسنا فقط ... لقد حاولوا أن يغرسوا فينا الفكرة الوهمية عن عالمية المسار السياسي والاقتصادي، والتقدم الاجتماعي والتطور التكنولوجي ... نحن الآن وجهاً لوجه مع حقيقة أن كل هذا كان مجرد كذب وافتراء، لا يوجد نظام قيم مشترك ... ومن الآن فصاعداً لا ينبغي أن يكون هناك ديماغوجية بخصوص شمولية القيم « (دوغين، ألكسندر،2023).

ومن وجهة نظر مستقلة، ألقى تقرير تم تقديمه بتكليف من الاتحاد الأوروبي باللوم على جورجيا في بدء الحرب، وخلُص إلى أن «الأعمال العدائية المفتوحة بدأت بعملية عسكرية جورجية واسعة النطاق ضد (تسخيفال) والمناطق المحيطة بها»، في 7 آب 2008، وأشار التقرير إلى أن التوترات كانت تتصاعد منذ سنوات، مع أعمال استفزازية من الجانبين كليهما، وتابع التقرير بالقول إنه «لا توجد طريقة لتحميل المسؤولية الكاملة عن النزاع لطرف واحد»، وذكر التقرير أيضاً أنه « لم يكن هناك هجوم مسلح مستمر من لدن روسيا قبل بدء العملية الجورجية» ، وأن « المزاعم الجورجية بوجود واسع النطاق للقوات المسلحة الروسية في أوسيتيا الجنوبية قبل الهجوم الجورجي لا يمكن إثباتها من خلال المُهمة»، وإن استخدام جورجيا للقوة ليس له ما يسّوغه بموجب القانون الدولي.

ومع ذلك، وجد التقرير أن الرد العسكري الروسي، على الرغم من كونه كان قانونياً في البداية، لكنه انتهك القانون الدولي مع دخوله في جورجيا. وفي الوقت عينه ألقى التقرير باللوم على الجانبين كليهما في جرائم الحرب، وخلص إلى أن التطهير العرقي نفذته جماعات شبه عسكرية مدعومة من روسيا في أوسيتيا الجنوبية ورفض المزاعم الروسية بارتكاب إبادة جماعية ضد سكان أوسيتيا الجنوبية (موقع ويكيبيديا العربية، تقرير عن مسؤولية الحرب الروسية الجورجية،2008). في هذه اللحظة الفارقة بدأ لروسيا أن الوقت قد حان للتملص من الانقياد إلى الغرب التي فرضتها حقيقة تفكك الاتحاد السوفيتي السابق، وأن لحظة الانتقال الى الفعل بدلاً من رد الفعل قد حانت، ويجب عليها أن تتمسك بفرصتها التاريخية للعودة مجدداً للريادة العالمية.

بناءً على ما تقدم وجد العديد من المفكرين والسياسيين الروس طريقهم إلى النظرية السياسية الرابعة ضمن مفهوم العودة إلى الحدث (Ereignis)؛ الذي جاء به الفيلسوف الألماني مارتن هايدغر (Martin Heidegger)، حيث لا يوجد شيء يحُد من عمق اللجوء الى القيم القديمة، التي تأخذ مكاناً في الفكر الأيديولوجي للنظرية السياسية الرابعة، وبالنسبة للحدث ستتجسد فيه (العودة المظفرة لروسيا) إلى موقعها الذي تستحقه كما يقول (دوغين) (دوغين، ألكسندر،2023).

ثانياً / النظرية السياسية الرابعة، إطار لمقاومة الوضع الدولي

حددت روسيا أولويات سياستها الخارجية بعد الافتراق عن الغرب عن طريق العديد من النقاط الجيوسياسية والأمنية والاقتصادية التي يمكن تلخيصها كما يأتي (صلاح الدين، حسام نبيل، 2021):

1/ الاعتماد على طرح مفهوم (الجوار القريب) أي أن تكون لروسيا الأولوية في علاقاتها مع دول الاتحاد السوفيتي السابق، حيث تسعي منها لتكامل معها ومنع التغلغل الغربي إلى مجالها الحيوي.

2/ التأكيد على هوية روسيا الأوراسية التي تعُززها الأقليات الروسية في دول الاتحاد السوفيتي السابق، والتي تشترك معها في اللغة والثقافة والحضارة، فضلاً عن تبعيتهم الروحية للكنيسة الارثوذكسية الروسية.

4/ العمل الجاد من أجل إقامة تكتلات استراتيجية لدعم قدرتها للوقوف بوجه الأحادية القطبية، والدعوة الى عالم متعدد الأقطاب عبر التحالف مع القوى الرئيسة في المجال الأوراسي (الصين، الهند، إيران) والاستفادة القصوى من وضعها الجيوسياسي المتميز عالمياً.

3/ الاعتماد على البراغماتية بدلاً من الأيديولوجية في توجيه أهداف السياسة الخارجية الروسية عن طريق السعي لإخراج روسيا من أزماتها الاقتصادية، وبناء دور عالمي مؤثر لها في النظام الدولي.

أوضح المفكر الفرنسي آلان سورال (Alain Soral) في مقدمته للطبعة الفرنسية لكتاب النظرية السياسية الرابعة (The Forth Theory)، أنه وعلى الرغم من الصعوبة الفكرية للمشروع الذي تطرحه النظرية؛ لكنه وببساطة يأتي في سياق تجسيد فكرة واحدة هي مواجهة الهيمنة الامريكية جيوسياسياً، وقيم الغرب حضارياً، وإن تبسيط الخطاب الأوراسي يؤدي إلى دمج هذا الخطاب في ممارسات الحياة اليومية. ومن وجهة النظر الروسية فإنه لا يوجد عدو لـ «روسيا-أوراسيا» في المرحلة التاريخية الراهنة مثل (الجزيرة الأطلسية الأمريكية)، وعليه فلابد من إقامة الحلف الأوراسي أو في الأقل توفير الحياد الكامل والصارم لأكبر عدد من الدول في مواجهة الغرب الأطلسي (زرنيز، آمال،2022).

ويذهب (دوغين) للتأكيد على أن التصور الجيوسياسي الروسي وطبيعة مصالحها الجيوسياسية والتاريخية تفرضان نفسيهما بقوة لتفعيل مقترحات لتطوير النظرية السياسية الرابعة في إطار المجال الأوراسي، ويقول « بدا جلياً برغم الضعف والارتباك أن روسيا وأوراسيا لم تختفيا في نهاية المطاف من الخريطة الجيوسياسية للعالم، ولا تزالان وإن كانتا في حالة متهاوية، جوهر حضارة بديلة، هي حضارة الأرض» (Aleksandr, Dugin،2015).

سعت روسيا في البداية لإرساء مبادئ لدورها المنشود في النظام العالمي وتمثلت هذه المبادئ المرحلية في (جبور، مازن،2016):

1/ تأكيد مبدأ عدم التدخل خوفاً من إرساء مبدأ تغيير الأنظمة القائمة عبر التدخل الخارجي.

2/ دعم الاستقرار والشرعية القانونية للدول الصديقة لروسيا خوفاً على مصالح روسيا فيها.

3/ أولوية مكافحة الإرهاب العالمي خصوصاً داخل حدودها وقريباً منها، والذي شكّل حزاماً يحيط بها في التسعينيات من القرن الماضي.

4/ الشروع تدريجياً في استخدام القوة العسكرية المباشرة لحماية الأهداف، والمصالح الروسية في مجالها الحيوي وخارجه.

5/ العمل على توسيع نطاق المصالح الروسية في دول (الجوار القريب) وصولاً لمناطق أبعد كالشرق الأوسط وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

يذهب ألكسندر دوغين إلى أن الجزء الإيجابي والعملي من النظرية السياسية الرابعة يتمثل في الدعوة للتعددية القطبية، كخطوة أولى وضرورية للمزيد من التطورات في النظرية، ويؤكد في هذا السياق على الخصائص التأسيسية للتعددية القطبية، والتي هي (دوغين، ألكسندر،2023):

1/ يمثل العالم (متعدد الأقطاب) بديلاً جذرياً للعالم (أحادي القطب)، من حيث الإصرار على وجود مراكز متعددة مستقلة لإتخاذ القرارات الاستراتيجية العالمية.

2/ يجب أن تكون هذه المراكز مُجهزة بشكل كافٍ ومستقلة مالياً بهدف توفير القدرة لها على مقاومة الهيمنة المادية والتكنلوجية والعسكرية للغرب.

3/ ليست مراكز صنع القرار هذه مُلزمة بالاعتراف بعالمية المعايير والقيم الغربية كونها شرطاً لا غنى عنه، ومن هذه المعايير (الديمقراطية، الليبرالية، السوق الحر، النظام البرلماني، حقوق الإنسان، الفردية، العالمية، إلخ)، ويمكن أن تكون هذه المراكز مستقلة عن الهيمنة الروحية للغرب.

4/ لا يقترح العالم (متعدد الأقطاب) أو يفترض العودة للثنائية القطبية، فلا يوجد قوة واحدة يمكنها بمفردها مقاومة الهيمنة الأمريكية لا استراتيجياً ولا إيديولوجياً.

5/ إن العالم (متعدد الأقطاب) لا ينظر بجدية إلى سيادة الدول القومية القائمة ما لم يتم تأكيدها من خلال وجود إمكانات عسكرية واستراتيجية واقتصادية وسياسية كافية، ولان الدولة القومية لم تعد كافية لمعالجة الأوضاع الدولية الراهنة؛ لذا يجب اللجوء لإنشاء مجموعات من الدول عن طريق التحالف لإنجاز السيادة الحقيقية.

6/ لا يمكن اختزال (التعددية القطبية) إلى (لا قطبية) أو (تعددية الأطراف)؛ لأنها لا تضع لها مركزاً للقرار، وهو الذي يجب أن يُوطن في (التعددية القطبية) في مكان مُحدد.

انتقلت روسيا تدريجياً لممارسة أدوار إقليمية وعالمية أكثر أهمية وبدأت بالانتقال من سياسات تحاكي الغرب الى أساليب أكثر تفرداً وإبداء تشكك أكبر حيال شركاء روسيا الغربيين، وقدمت تصوراً لهوية روسيا الخاصة والفريدة التي يتم تحديد مصالحها عن طريقها، وذلك ضمن ما أسمته (الأفكار الروسية التقليدية)؛ التي تشتمل على الوطنية والاحساس بالفخر بالتاريخ والثقافة والإنجازات الروسية عبر العصور، والتي تدفع لحماية وتعزيز المصالح القومية الروسية أينما كانت في الساحة الدولية _صلاح الدين، حسام نبيل،2021).

وبالنظر إلى هذه العوامل، نجد أن روسيا الاتحادية لا تنظر إلى سياسات الديمقراطية الغربية بازدراء واحتقار فحسب، بل أنها ترى أن العالم مقبل على انقلاب هائل على هذه السياسات غير المتناسقة مع التنوع الثقافي والعقائدي والأيديولوجي الذي يسود في دول العالم غير الغربي.

إن استراتيجية روسيا إذن تنادي بضرورة قيام ثورة مفاهيمية على الليبرالية الغربية، على أن يُعاد النظر في الديمقراطية نفسها كنظرية وكتطبيق من حيث ضرورة تكيفها مع القيم الدينية، فهذه الناحية لديها لا تشكّل عقبة أمام ظهور حكومات دينية (راديكالية) أكثر نجاحاً من غيرها كتلك التي اتخذت العلمانية منهجاً، وتدلّل على ذلك بالنجاح الذي تحرزه (تركيا المسلمة) في مجالات الاقتصاد والجيش والأمن والتقدم التكنولوجي، للتأكيد على أن الدين لا يتعارض مع الأفكار التقدمية التي يدعو إليها الغرب (شوبوأوغلو، سرحات،2016).

إن معارضة الهيمنة الأمريكية والدعوة الصريحة للتعددية لم تكن شيئاً جديداً على المستوى الدولي، بل أن هناك سوابق عديدة يمكن الإشارة لأحدها في هذا السياق وهي (النزعة الإستقلالية الفرنسية) المخالفة للرؤى الأمريكية حول نوعية البناء الأمني والسياسي الأوروبي، والتي قادها الرئيس الفرنسي الأسبق شارل ديغول (Charles de Gaulle)، الذي رسم وبقوة نوعية الصلات التي ينبغي أن تسود بين الطرفين ودعا إلى محاربة كل تبعية للولايات المتحدة الأمريكية وأكد ضرورة بناء قوة أوروبية وطنية مستقلة عن أي تدخلات أو مشاركات أجنبية للوصول الى استقلال أمني وعسكري أوروبي يحقق توازناً مع حلف شمال الأطلسي؛ الذي تقوده وتتحكم فيه الولايات المتحدة الأمريكية، ورأى أن الولايات المتحدة الأمريكية تكيل بمكيالين في علاقاتها مع الأوروبيين عن طريق سعيها لبسط سيطرتها على أوروبا كقوة عالمية، وفي الوقت نفسه محاولات إضعاف أوربا وإبقائها تحت المظلة الأمنية والعسكرية الأمريكية، وكذلك بتقييد علاقاتها مع دول العالم الأخرى أو التحكم فيها، وفي الواقع استمرت المواقف الفرنسية المعارضة للهيمنة الأمريكية حتى وقت قريب، كما في الموقف من الحرب على الإرهاب في السنوات القليلة الماضية (بلال، قريب،2011).

المطلب الرابع/ موقع القيم في النظرية السياسية الرابعة

تستدعي النظرية السياسية الرابعة الأحداث العالمية عندما تتحدث عن المناقشات بخصوص التوازن بين القيم والمصالح، التي نشأت بعد الحرب الباردة وكيف قدم الغرب قيمه على أنها قيم عالمية تداخلت فيها المصالح الغربية والقيم الغربية في مزيج تصرفت فيه الدعاية الغربية بشكل أساسي بحسب قوانين الحرب، التي أظهرت انتصار الغرب وكأنه انتصار لقيمه العولمية، وعلى الرغم من ظهور أسئلة أكثر صدقاً حول ما حدث لتلك القيم في غزو أفغانستان والعراق وليبيا وغيرهما، فإن الجميع بات يُدرك الحقيقة الواضحة في تغليب الغرب لمصالحه على قيمه المُعلنة عندما تصادمت مع مصالح وقيم الآخرين. لأشك أن للجميع مصالحه التي هي بحكم تعريفها أنانية وغالباً ما توّلد الصراعات والتوترات في ظل سعي الجميع لتوسيع مناطق سيطرتهم الفكرية والعملية على حساب الآخرين، غير أن السؤال يكمن في كيفية ايجاد صيغة متوازنة للجميع للدفاع عن مصالحهم بشكل شرعي في إطار الاعتراف ببعض القواعد العامة، التي تشكل بمجملها قواعد العلاقات الدولية والمُصممة في جوهرها لتنظيم تضارب المصالح بين الفاعلين في البيئة الدولية.

أولاً / القيم المقاومة للسياسة

يعتقد ألكسندر دوغين (Alexander Dugin)، أن تحقيق النظرية السياسية الرابعة لن يتم إلا بشرطٍ مُسبق، هو المعارضة (لما بعد الليبرالية)، وقيمها كممارسة عالمية، وضد العولمة، وضد ما بعد الحداثة، وضد الوضع الراهن الذي يلغي مُسبقاً أي نظريات سياسية على الإطلاق، بل يلغي السياسة التي بمُجملها، ويقول « يتم استبدال جميع القرارات السياسية بقرارات تقنية وتحل الآلات والتكنولوجيا محل كل شيء آخر»، وهذا ما يُطلق عليه «الحوكمة»، وفيها يحل المُديرون والتكنوقراط محل السياسي الذي كان يتخذ القرارات الحاسمة، وفي هذه المرحلة تغيب القيم والأخلاق والسياسة معاً، كما يقول (دوغين) (دوغين، ألكسندر، 2021).

لقد استشعر الأوراسيون الجدد أن خوف الكنيسة الأرثوذكسية ومعها الانتلجانسيا (Intelli-gentsia) (الانتلجانسيا: يعتقد المؤرخون أن الشاعر الروسي (فاسيلي جوكوفسكي) كان أول من استعمل المصطلح في مرحلة ما قبل الثورة البلشفية لوصف مجموعةٍ من الأشخاص الذين يمتلكون مبادراتٍ ثقافيةً وسياسيةً، ويتشاركون في عملٍ عقلي معقدٍ بهدف نشر الثقافة والوعي ضمن المجتمع، لذا فهي تعني النخبة المثقفة) الوطنية الروسية، يكمن في علاقة ونظرة الآخر وخصوصاً الغربي تجاه روسيا، فهناك تبخيس (Depersonaliza-tion) للإنسان الروسي وقيمه وحضارته، الأمر الذي يجعل الروسي يشعر بالعزلة والقهر الحضاري والثقافي اتجاه الغرب المُعزز بالتقدم التكنلوجي والاقتصادي، والذي يجتاح العالم من دون هوادة، لذا تجد الكنيسة والنخبة المثقفة الوطنية نفسها في قلب معركة القيم مع الغرب، وتسعى في أثناء وجودها في المتُخيل الاجتماعي والثقافي الروسي إلى التركيز على عظمة الحضارة والقيم الروسية وقوة الانتماء إلى روح الجماعة (فرح، سهيل،2017).

تؤمن القيادة الروسية المعاصرة بمفهوم واسع للتنافس الدولي في الوقت الحاضر، وهذا المفهوم لا ينحصر بتحقيق المصالح السياسية والاقتصادية والعسكرية التقليدية فقط، بل يشمل الترويج لأنظمة قيمية ونماذج حضارية، وهو ما يمنح الكنيسة الأرثوذكسية فرصة للتأثير المباشر في السياسة الخارجية الروسية خصوصاً مع وجود قناعة راسخة عند النخبة الروسية، على اختلاف توجهاتها، بأن روسيا تُمثل أنموذجاً للتعايش الديني والحضاري. فقد أصدرت الكنيسة عام 2000 وثيقة تأسيسية بعنوان (أسُس المفهوم الاجتماعي)؛ تضمنت رؤية وتوجهات تفصيلية لعلاقة الكنيسة بأتباعها وبالأمة الروسية، وكذلك الأجهزة الحكومية.

مؤكدة على الانسجام والتعاون والدعم المتبادل بين الكنيسة والدولة فضلاً عن تقاسم الاختصاصات وحاجة كل منهما للآخر (الخثلان، صالح بن محمد،2015).

من جهته، جاهر الرئيس الروسي (فلاديمير بوتين) بموقفه من الدين في العديد من المناسبات مُعلناً؛ أن «صوت الكنيسة يجب أن يكون مسموعاً بقوة في المجتمع الروسي»، وفي لقائه مع بطريرك الكنيسة الأرثوذكسية وقادة الطوائف في البلاد عام 2012، ذهب (بوتين) إلى القول «أن الكنيسة أدت دوراً مهماً في إحياء البلاد وإخراجها من الحالة المضطربة التي عاشتها بعد تفكك الاتحاد السوفيتي؛ موضحاً أن القيم الدينية التي افتقدها المجتمع كانت المخرج الوحيد للدولة والشعب للخروج من مأزق حقبة التسعينيات من القرن الماضي» (منصور، سليم هاني،2021).

بدوره، ذهب تيمور دويدار (Timur Dowidar)، إلى القول بأن (بوتين) إستخدم الكنيسة لمواجهة ثقافة الغرب وتعزيز الثقافة الروحية التي يمكنها معالجة ما أسماه « أمراضاً تنخر المجتمع الروسي»، ويرجع ذلك كما يقول (دويدار) إلى غياب الأيديولوجيا الفكرية للدولة بعد تفكك الاتحاد السوفيتي، ولأنه (أي بوتين) أعتقد أن الكنيسة الأرثوذكسية باستطاعتها لمّ شمل الشعب، وتعويض غياب سياسة واضحة تجاه الغرب، وأيضاً عن طريق استعمال القيم التقليدية وفي مقدمتها قيم الأسرة لمواجهة القيم الثقافية الوافدة من الغرب؛ مثل: زواج المثليين، وتغيير الجنس، والإجهاض. وتزامن ذلك كله مع وجود مشكلة حقيقية في روسيا تتمثل بتناقص عدد المواليد الجُدد، وضعف الإقبال على الزواج، وعليه باتت الكنيسة تلعب دوراً مهماً في تحصين المجتمع ضد هذه المفاهيم والقيم الوافدة (عاصي، عبد الرحيم،2018).

يعتقد (ألكسندر دوغين) أن الخطوات الإصلاحية التي اعتمدها الرئيس (فلاديمير بوتين) قد غيرّت المسار الفكري والسياسي والجيوسياسي العام لروسيا، وكانت إجراءاته إستجابة واعية للروح الأوراسية التي سادت في روسيا خصوصاً في مدة رئاسته الثانية، وما بعدها، وكانت بعض تلك الإجراءات تحمل محتوى جيوسياسياً رمزياً، ومنها (دوغين، ألكسندر،2021):

1/ إدانة السياسات الحكومية لمرحلة التسعينيات والتي أدت إلى خضوع روسيا الفعلي للإرادة الغربية الخارجية، وعليه توجب إعلان السيادة بكونها أعلى قيم روسيا الحديثة.

2/ الحوار الصريح والنزيه والمحايد مع الولايات المتحدة الامريكية والغرب عموماً، وإدانة ممارسة المعايير المزدوجة والهيمنة والأحادية القطبية السائدة في النظام الدولي، والدعوة الصريحة للتعددية القطبية والتعاون مع القوى العالمية جميعها لتحقيق التعددية عملياً.

3/ مراجعة الموقف الرسمي من التاريخ الروسي ونقله من العدمية المبنية على القبول من دون تمحيص بالنهج الليبرالي الديمقراطي الغربي إلى الدعوة لاحترام القيم والتقاليد المحافظة المترسخة في ذلك التاريخ.

4/ دعم عمليات التكامل في الفضاء السوفيتي السابق، وتفعيل الإجراءات الهادفة لإعادة إحياء هياكل التكامل بمختلف مستوياتها مع دول الجوار القريب، وعلى أساس المصالح المشتركة.

لقد أعطت روسيا إهتماماً كبيراً للمعطيات الجيوسياسية، فحاولت الاقتراب من أوروبا وواجهت الولايات المتحدة الامريكية؛ لأن الغرب في نظرها ليس واحداً، وعبّرت في سياساتها كما يقول (دوغين) عن وعي هوياتي وجودي، فمارست التدخل الحاسم في المجال الأوراسي ما بعد السوفيتي، كما في (جورجيا، أوسيتيا الجنوبية، أبخازيا، أوكرانيا) وكانت ترى ضرورة موازنة النزعة الأحادية الأمريكية كمهمة أساسية دائمية لروسيا، وهذا هو الجزء المهم والعملي من الفلسفة الأوراسية (خشيب، جلال،2018).

ثانياً / صراع القيم الراهن، روسيا والغرب

في إطار مقاومة الوضع الدولي الراهن، وفي إطار صراع القيم ذهب الرئيس الروسي (فلاديمير بوتين) مراراً إلى القول؛ إن «القيم وحدها وليس الثورات والإنتفاضات هي الوسيلة للخروج من الأزمات» ، غير أن بعض الباحثين يرى أن القيم تتعثر في عراقيل البراغماتية، فالرئيس (بوتين) مقتنع بأن روسيا اليوم أفضل من روسيا البلشفية، وهو يقدّم نفسه قائداً يتأبط شعار التقليدية المحافظة الصحية (Healthy Conservatism)، غير الخائف من التغيير، والذي ينبذ التطرف، ويحُسن التموضع عالمياً، وفي الوقت نفسه لا يعجبه الطرح الداعي الى إيجاد حلول عالمية للمشكلات العالمية؛ لأن ذلك يتطلب التضحية ببعض السيادة بينما هو متعلق بمبدأ السيادة التي يعدها القيمة العُليا للدولة الروسية. أن روسيا في الوقت عينه تشكو « بأن «المهادنة» الروسية - الأميركية لم تنجح يوماً»؛ لأن الأميركيين لا ينظرون إلينا «كشريك على قدم المساواة»؛

أما بالنسبة لخيار التحالف مع أوروبا فهو كما ترى روسيا مستحيل لأن الأوربيين يُصرّون على تطبيق مبادئ حقوق الإنسان حسب الرؤية الغربية، بينما تراها روسيا وسيلة غير بريئة للتدخل في شؤونها الداخلية، وعليه يلعب اختلاف القيم هنا، وكما هو واضح دوراً حيوياً ومهماً في افتراق روسيا عن الغرب (درغام، راغدة،2021).

تكررت في خطابات وتصريحات الرئيس الروسي (بوتين) العديد من المصطلحات المتعلقة بأشياء على غرار الهجوم الأيديولوجي على القيم الروسية من الغرب، والمليار الذهبي (هو مصطلح شائع في روسيا والبلاد الناطقة بالروسية للإشارة إلى الدول الصناعية الغنية التي ترى أن موارد الأرض لا تستطيع أن تلبي حاجات سوى مليار نسمة من البشر ليعيشوا بمستوى دخل مناظر لما هو عليه الحال في الدول الغنية، ومن ثم فإن نمط الاستهلاك المفرط والرفاهية العالية التي يتمتع بها سكان الدول الغنية لا يمكن توفيرها لباقي سكان العالم بسبب محدودية الموارد على كوكب الأرض وعليه يجب الاقتصار على عدد لا يزيد عن مليار نسمة)، وتقسيم الشعوب على صنف أول وثاني وهكذا. ففي أثناء كلمته في (منتدى سوتشي) في 20 تموز 2022، والمنعقد تحت عنوان (أفكار قوية للعصر الجديد)، صرح الرئيس (بوتين) إن فكرة الهيمنة الكاملة للمليار الذهبي هي فكرة عنصرية واستعمارية جديدة بطبيعتها. وأضاف «يفتقد نموذج الهيمنة الكاملة لما يسمى بالمليار الذهبي (Gold-en billion)، لأية عدالة، لماذا من بين كل سكان الأرض يجب أن يهيمن هذا المليار الذهبي على الجميع؟ ويفرض قواعد سلوكه الخاصة عليهم؟». وعاد الرئيس (بوتين) في 30 أيلول 2022 ، للتذكير مرة أخرى باستمرار الغرب في عدوانه القيمي على روسيا قائلاً « إن مثل هذا الإنكار الكامل للإنسان، والإطاحة بالإيمان والقيم التقليدية، وقمع الحريات بشكل يكتسب سمات الدين المعكوس؛ هو شيء شيطاني صريح»، وطرح في الخطاب نفسه عدداً من التساؤلات التي جاءت كالآتي، «هل نريد، هنا في بلدنا، في روسيا، بدلاً من الأب والأم، أن يكون هناك الوالد الأول والوالد الثاني والوالد الثالث؟، لقد فقدوا رشدهم تماماً بالفعل، هل نريد حقاً أن تفرض الانحرافات التي تؤدي للتدهور والانقراض على مدارسنا من الصفوف الابتدائية؟» (يُسري، داليا،2022).

لطالما قدم الرئيس الروسي (فلاديمير بوتين) نفسه على أنه وصياً على القيم الروسية التقليدية، ومنذ بداية الغزو الروسي لأوكرانيا عام 2022، ضاعفت السلطات الروسية جهودها لإبعاد شعبها عن تأثير الدعاية للقيم الغربية، وفي هذا الإطار أجرى الرئيس (بوتين) تغييرات على «أسس السياسة الثقافية للدولة»، التي تقضي بحماية مؤسسة الزواج كاتحاد بين رجل وامرأة، وتهيئة الأحوال لتنشئة الأطفال وتنميتهم على أساس القيم الروحية والأخلاقية الروسية التقليدية، ومكافحة الاستعمال المفرط للمفردات الأجنبية والكلمات البذيئة. ويُعرّف المرسوم الرئاسي (السيادة الثقافية) بأنها «مزيج من العوامل الاجتماعية والثقافية التي تسمح للشعب والدولة بتشكيل هويتهما، وتجنبهما الخضوع الاجتماعي والنفسي والثقافي للمؤثرات الخارجية، وتؤمن لهما الحماية من الأيديولوجيا والإعلام «المدمر»، وتحافظ على الذاكرة التاريخية لشعبها، وتلتزم بالقيم الروحية والأخلاقية الروسية التقليدية»(الصوراني، فهيم، 2023).

ويقول مدير منتدى الحوار من أجل السلام القس ديمتري باخوموف (Dmitry Pakhomov)، «إن روسيا انتقلت إلى مرحلة أصبحت تقدم فيها نفسها طرفاً يتعارض مع الغرب، ليس فقط في منظومة القيم السياسية، بل الثقافية أيضا»، ولا يستبعد (باخوموف) أن تتحول روسيا في أوضاع السعي لإقامة عالم متعدد الأقطاب، إلى رأس حربة المدافعين عن القيم الروحية والأخلاقية العالمية التقليدية إلى جانب الدول والمنظمات التي تؤيد هذا الخط، وبرأيه فإنه إلى جانب تحصين الجبهة الداخلية في مجالي الثقافة والقيم، فإن المرسوم الرئاسي يدعم كذلك صورة الدولة الروسية على الساحة الدولية، ويقدمها كونها الحارس الأمين والمدافع عن القيم الروحية والأخلاقية، كما يشير إلى جدية المعركة الحالية مع القيم الغربية والفرصة التاريخية التي نشأت لمواجهة محاولة إضعاف وتدمير روسيا، ما يستدعي التصدي لمحاولات غزوها ثقافياً بالسُبل كافة (الصوراني، فهيم،2023).

الخاتمة والاستنتاجات/

1/ يُشير التفكير الرغائبي بالأساس إلى تمني تحقيق الأهداف المُرتجاة طبقاً للطموحات لا طبقاً للواقع أو الحقيقة أو الأدلة أو حسابات العقل، وهو لا يمثل مغالطةً منطقيةً فحسب، بل يمثل تحيزاً معرفياً. إن التحيز القيمي هو حقيقة لا مفر من الإقرار بها عند مباشرة التنظير، ومع ذلك تبقى النظرية عنصراً لا غنى عنها كأحد العناصر الأساسية في توجيه وتحديد وصياغة المعرفة العلمية، وتحقيق التراكم المعرفي عبر شرح قوانين السلوك السياسي للفاعلين الدوليين بمختلف مستوياتهم وتوجهاتهم.

2/ من وجهة نظر غير متطرفة، نتوافق معها نجد أن المعرفة النظرية لا يمكن أن تخلو بشكل مطلق من التحيز القيمي، فضلاً عن الرغائبية بدرجة أو بأخرى، وأنه يمكن تمييز النظرية السياسة المتحزبة لوجهة نظر معينة وبين الفهم الفكري والمعرفة العلمية الخالصة التي يسعى له الباحثون.

3/ درسنا السياق التاريخي والعملي لانتقال روسيا من مهادنة ومسايرة الغرب في مرحلة الضعف؛ التي مرت بها بعد تفكك الاتحاد السوفيتي إلى نقطة الانتقال لمقاومة الوضع الدولي المتمثل بالهيمنة الأمريكية والأحادية القطبية، وكيف رسمت روسيا أهدافها الاستراتيجية وصولاً لتأكيد تفردها الجيوسياسي ضمن مبادئ الأوراسية الجديدة المتمثلة بالنظرية السياسية الرابعة كخطة عمل لتحقيق التعددية القطبية، وتفتيت المركزية الغربية التي تقود العالم منفردة منذ عقود طويلة وصولاً لاستعادة دورها المأمول عالمياً.

4/ تبين لنا أن النظرية السياسية الرابعة هي نظرية سياسية أُعدت لمقاومة الوضع الدولي الراهن، ووُجدت في إطار الأوراسية الجديدة، وقد حددنا متى كانت النقطة الفاصلة التي وضعت حداً لسير روسيا في سياق الليبرالية الغربية، والانتقال بعد ذلك لحماية القيم والتقاليد الروسية المحافظة، وعرضنا لجهود الحكومة الروسية لحماية تلك القيم من مؤثرات العولمة الثقافية الغربية عبر تأكيد التناقض بين القيم التقليدية الراسخة في المجتمع الروسي وبين تلك القيم الغربية الوافدة، والتي ينبغي توفير الحماية منها بمختلف الطرائق القانونية والثقافية عن طريق تعزيز مفهوم (السيادة الثقافية). لقد استمرت روسيا بالتأكيد على أن الغرب لن يتقبل روسيا في سياقه الجيوسياسي التاريخي، ليس لسبب سوى لأن لها حضارة وقيماً مختلفة عنه تماماً.

5/ لقد بحثنا المقاربة المعرفية للنظرية السياسية الرابعة بعّدها الفلسفة السياسية التي أنتجتها الأوراسية الجديدة ومُنظرّها (ألكسندر دوغين)، والتي تميزت بنوع من الرغائبية والطوباوية التي يصعُب تحويلها الى واقع في ظل الأوضاع الدولية الراهنة. وفي الوقت عينه وجدنا أن النظرية السياسية الرابعة هي وسيلة هجوم على الهيمنة الليبرالية الرأسمالية، وخصوصاً معطيات ما بعد الحداثة التي يغيب فيها الفرد عن هويته ووعيه الحضاري والقيمي من جهة، وهي في الوقت عينه وسيلة دفاع عن التعددية القطبية، والمحافظة على القيم الروحية التقليدية والثقافات المتنوعة الغنية بالإرث الحضاري من جهة ثانية.

المصادر/

1/ أحمد محمد العايدي: تأثير النظرية السياسية الرابعة على السلوك السياسي الروسي تجاه جمهورية مصر العربية بعد ثورة 30 يونيو عام 2013, المجلة العلمية، العدد 74، كلية التجارة، جامعة أسيوط، مصر، 2022.

2/ أسامة أبو أرشيد: عن التحليل الرغائبي، 2022، متاح على الموقع:

https//:www.alaraby.co.uk/opinion./

3/ ألكسندر دوغين: الخلاص من الغرب، الأوراسية، (الحضارات الأرضية مقابل الحضارات البحرية والأطلسية)، ترجمة علي بدر، دار ألكا، بغداد, 2021.

4/ ألكسندر دوغين: النظرية السياسية الرابعة، (روسيا والأفكار السياسية في القرن الحادي والعشرين)، ترجمة مازن محمد نفاع، دار ومكتبة عدنان، بغداد, 2023.

5/ ألكسندر دوغين: جغرافية السياسة في روسيا، ترجمة عاطف معتمد وسعد خلف ووائل فهيم، المركز القومي للترجمة، القاهرة, 2021.

6/ ألكسندر دوغين: نظرية عالم متعدد الأقطاب، ترجمة ثائر زين الدين وفريد حاتم الشحف، دار سؤال للنشر والتوزيع، بيروت, 2023.

7/ آمال زرنيز: الأوراسية الجديدة وتأثيرها في الفكر الاستراتيجي الروسي، دوافع التدخل في أوكرانيا وسوريا وحدوده، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، الإمارات, 2022.

8/ جلال خشيب: الجيوبولتيك الروسية الحديثة والمعاصرة، طموح النظرية وحدود التطبيق، مركز إدراك للدراسات والاستشارات، حلب, 2018.

9/ حسام نبيل صلاح الدين: تأثير البيئة الداخلية في تغيير سياسة روسيا تجاه الاتحاد الأوربي، المكتب العربي للمعارف، القاهرة, 2021.

10/ حسن فاضل سليم: دور الأوراسية الجديدة في تطور الفكر الاستراتيجي الروسي بعد عام 2000, رسالة ماجستير، كلية العلوم السياسية، الجامعة المستنصرية, 2018.

11/ خلف الجراد: نظرية التعددية القطبية في العالم للكاتب ألكسندر دوغين، مجلة الفكر السياسي، العدد 64, إتحاد الكّتاب العرب في سوريا، دمشق, 2017.

12/ داليا يُسري: الحماية من الأيديولوجية الغربية المُدمرة: (قراءة في مرسوم أساسيات الحفاظ على القيم التقليدية الروسية) , 12/12/2022.

13/ راغدة درغام: لإيهما الأولوية في روسيا: القيم أم البرغماتية؟، جريدة النهار العربي، 24/10/2021، متاح على الرابط :

https //:www .annaharar .com /arabic /makalat /annahar -alarabi -au-thors. 23102021085610427/

14/ زين العابدين صالح عبد الرحمن: الرغائبيون والتقليديون في السياسة، 2024، متاح على الرابط،

https//:www.altaghyeer.info. /

15/ سرحات شوبوأوغلو: ملامح أولية لأيديولوجيا روسية جديدة تتحدى الديمقراطية الغربية، دورية إتجاهات، العدد 18, مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، أبو ظبي، الأمارات العربية المتحدة, 2016.

16/ سليم هاني منصور: البُعد المسيحي للسياسة الروسية في المشرق العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت, 2021.

17/ سهيل فرح: الحضارة الروسية، المعنى والمصير، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، 2017.

18/ صالح بن محمد الختلان: الدين والسياسة الخارجية الروسية، مركز الفكر الاستراتيجي للدراسات، إسطنبول، 2015.

19/ عبد الرحيم عاصي: بوتين والكنيسة، (علاقة مضبوطة بمصالح الكرملين)، جريدة الاخبار, 17/3/2018، متاح على الموقع:

https//:al-akhbar.com/World. 246402/

20/ فهيم الصوراني: تعبئة ثقافية بمرسوم رئاسي في روسيا، ما علاقتها بالصراع مع الغرب؟, 2023، متاح على الرابط:

https//:anbaaexpress.ma. /2023/01/

21/ قريب بلال: السياسة الأمنية للاتحاد الأوروبي من منظور أقطابه، التحديات والرهانات، رسالة ماجستير، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة الحاج لخضر - باتنة، الجزائر, 2011.

22/ مازن جبور : الحراك الروسي في الأزمة السورية, موقع دمشق للأبحاث والدراسات (مداد), 2016، متاح على الرابط:

https//:bit.ly3/iulViC. /

23/ معين حداد: إشكالية المكان، (دور البر والبحر في الصراع بين الشرق والغرب والعالم الإسلامي)، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، 2015.

24/ موقع الموسوعة الحرة ويكيبيديا العربية، تقرير عن مسؤولية الحرب الروسية الجورجية، متاح على الموقع:

https//:ar.wikipedia.org./

25/ Aleksandr Dugin: Last War of the World-Island, The Geopolitics of Contemporary Russia, Translated by John Brant, Arktos, London, 2015.

لِدولةٍ فاعلةٍ ومجتمعٍ مُشارِك

www.bayancenter.org
info@bayancenter.org